قضية الغموض الشعري في تاريخ نقد الشعر العربي*

Nevin KARABELA **
İbrahim İBHOWR***

الملخص

اهتم جلّ النقاد العرب قديمًا وحديثًا بقضية الغموض الشعري، وهي قضية كبرى تتعلق بمسألة الإبداع الشعري من جهة اختيار الألفاظ والمعاني، وتتصل بالمتلقي والتواصل بينه وبين الشاعر من جهة أخرى، وهو ما أعطاها أهميةً قصوى عند النقاد، ولا يمكن تجاوز دلالة الغموض اللُّغوية التي تشير إلى خفاء المعنى، وعدم وضوح المراد من الكلام، وهو ما جعل الغموض يشترك مع (الإبهام) في دلالته السلبية، إلا أن بعض النقاد القدماء والمحدثين فرّقوا بينهما، وصرّحوا بأن الغموض طبيعة فنية، ولمسة جمالية تتصل بالصياغة الشعرية.

وأمَّا المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي، ولعله الأنسب في بيان جهود النقاد القدماء والمحدثين في التأصيل لهذه القضية النقدية المهمة، وعمومًا موقف النقاد العرب من قضية الغموض يمكن إجماله في ثلاثة أفرقة يمثل الرافضون للغموض الفريق الأول- وهم أنصار الوضوح وتقريب المعنى إلى السامع، ويمثلون النقد اللّغوي؛ أي: يهتمون بشرح المفردات غالبًا لا بالبيت الشعري، وأمَّا الفريق الثاني- فهم القائلون بالغموض من أنصار المحسنات البديعية، والاستعارات، وهم دعاة التجديد في اللغة الشعرية، ويأتي المتوسطون فريقًا ثالثًا بين الفريقين السابقين، وتتجسد رؤيتهم في أن الغموض درجات متفاوتة، وأنه ملازم للغة الشعر، كما أن الوضوح والغموض أمران نسبيان؛ أي: يجب على الأديب أن يحرص على الشمول، والعمق والدّقة عند تعامله مع الأفكار لا الوضوح والغموض.

الكلمات المفاتيح: الغموض، الإبهام، اللغة الشعرية، الغموض الشعري.

Arap Eleştiri Tarihinde Şiirsel Kapalılık Problemi

Öz

Klasik ve modern dönemde Arap eleştirmenler şiirsel kapalılık problemini önemsemişlerdir. Bu problem kelimelerin ve manaların seçimi bakımından şiirsel yaratıcılıkla bağlantılıdır. Aynı zamanda alıcı/okuyucu ve onun şairle iletişimini sürdürmesi ile ilişkilidir. Bu durum tenkitçilerin konuya önem verme sebebidir. Arapçada şiirsel kapalılık için kullanılan "ğumud" kelimesinin sözlük anlamı gizlemek ve sözden kastedileni açık/net ifade etmemektir. Ğumud kelimesi "ibham" kelimesiyle olumsuz anlamda ortaktır. Ancak bazı eleştirmenler iki kelimeyi birbirinden ayırmıştır. Onlar "ğumud"un sanatsal ve estetik bir olgu olduğunu ve şiirsel ifade biçimi ile bağlantılı olduğunu öne sürmüşlerdir.

Makalede betimsel araştırma yöntemi kullanılmıştır. Çünkü klasik ve modern tenkitçilerin önemli bir eleştiri problemini temellendirme çabalarını açıklığa kavuşturmak için en uygun yöntemdir.

* Bu makale SDÜ Sosyal Bilimler Enstitüsünde yapılan "Klasik ve Modern Tenkitçilere Göre Arap Şiir Dilinin Problemleri" başlıklı doktora tezinden faydalanılarak hazırlanmıştır..

** Prof. Dr., SDÜ İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı Öğretim Üyesi.
*** SDÜ Sosyal Bilimler Enstitüsü Doktora Öğrencisi, ibrahimlibya37@gmail.com

Arap eleştirmenlerin kapalılık karşısındaki tutumunu *reddedenler, kabul edenler ve orta yolu tutanlar* olmak üzere üç gruba ayırmak mümkündür. Reddeden grup mananın açık olması ve okuyucuya/alıcıya yaklaştırılması gerektiğini savunur. İkinci grup şiirsel kapalılığı sanatsal güzellik ve istiare olarak görmekte ve savunmaktadır. Bunlar şiir dilinde yenilikçi kanadı temsil eder. Orta yolu tutan üçüncü grup ise kapalılığın farklı dereceleri bulunduğu ve şiir dilinin ayrılmaz bir parçası olduğu, kapalılığın kişiden kişiye değiştiği görüşündedirler.

Anahtar Kelimeler: Ğumud, İbham, Vuduh, Şiir Dili, Şiirde Kapalılık

Poetic Ambiguity in the History of the Criticism of Arabic Poetry

Abstract

Most of the ancient and modernist Arab critics have paid great attention to the issue of poetic ambiguity. It is a significant issue that is related to the issue of poetic creativity, the choice of words and meanings, on the one hand, and it relates to the addressee and the communication between him and the poet, on the other hand. This has given it the utmost importance to critics. The connotation of linguistic ambiguity which refers to the hidden meaning and the lack of clarity of what is meant by the speech cannot be disregarded. This made connectivity between ambiguity and vagueness in their negative connotation. Some ancient and modernist critics, however, differentiated between them stating that ambiguity is an artistic nature, and a beauty touch relates to and emerges from the poetic formulation. Imagination and brevity are predominant in the language of poetry.

The methodology adopted for this study is descriptive methodology. It is found the most appropriate methodology to show the ancient and modernist critics' efforts to analyse and trace this significant critical issue. Generally, the position of Arab critics on the issue of ambiguity can be summarized in three groups: The first group represents those who reject ambiguity. They are the proponents of clarity and they call for making the meaning closer to the listener. They represent linguistic criticism. In other words, they are often interested in explaining the vocabulary, not the poetic verse. The second group, however, represents those who advocate the ambiguity and support the innovative improvers, and metaphors. They are the advocators for the regeneration in the poetic language. The third group stands in the middle between the two above groups. Their view is that ambiguity has different levels and that it is inherent in the language of poetry. Additionally, clarity and ambiguity are relative matters. That is, scholars must maintain inclusivity, depth and accuracy when dealing with ideas, not clarity and ambiguity.

Keywords: Ambiguity; Vagueness; Poetic Language, Poetic Ambiguity

الغموض الشعري في تاريخ نقد الشعر العربي

اهتم جلّ النقاد العرب قديمًا وحديثًا بقضية (الغموض الشعري)، وهي قضية كبرى تتعلق بمسألة الإبداع الشعري من جهة اختيار الألفاظ والمعاني، وتتصل بالمتلقي والتواصل بينه وبين الشاعر من جهة أخرى- وهو ما أعطاها أهميةً قصوى- وقبل الحديث عن مسألة رفض الغموض أو قبوله فإنه يتوجب علينا الوقوف مع ماهية الغموض، وبيان أنه طبيعة فنية لا مناص منها، فالغموض يأتي في اللّغة بمعنى الإبهام وهو خلاف الواضح، والظاهر[1]، كما يبدو أن مادته تدور حول معنى الخفاء والدقة واللّطافة، و"يمكن القول إن معاجم اللغة ترى أن الغموض و الإبهام في الكلام لفظان يدلان معًا على خفاء المعنى، وعدم وضوح المراد منه، والفرق بينهما – عند أكثر المعاجم– في درجة هذا الخفاء، فما كان خفاؤه يمكن الكشف عنه فهو الغامض، وما كان خفاؤه من الصعب كشفه فهو مُبهم"[2] وبهذا التداخل بين الغموض والإبهام حصل الخلط بينهما، إلا أن بعض الدارسين فرّق بينهما بأن الإبهام: هو ما يعتري التراكيب النحوية والصياغة اللغوية من فساد بسبب فساد النظم، وسوء التأليف، وعليه فالإبهام صفة سلبية، وأمَّا الغموض فهو صفة إيجابية تدل على براعة الشاعر في تعامله مع مدلولاته اللغوية وحُسن توظيفه لها، ومن هنا يتقرر أن الغموض طبيعة شعرية تختلف باختلاف الشعراء، كما أن الشعر عملية إبداعية خلاّقة لا يشترط فيها عرض الحقائق والوضوح؛ بل لعل الشعر أبعد ما يكون عن الوضوح؛ لانّه قائم على التخييل في صنع عوالمه، وكلما زادت نسبة الخيال كان أبعد عن الحقيقة والمألوف، وهو الأنسب للطبيعة الشعرية[3].

---

[1] ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، لبنان،1993، (غ، م ، ض).

[2] الصاري، عادل، ،الغموض في القصيدة العربية الحديثة (دراسة لأسباب الغموض في شعر الرواد)، مكتبة دار حمودة، زليتن – ليبيا،2006م ، ص. 8.

[3] إسبر، أدونيس علي أحمد ، زمن الشعر ، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1983، ص. 21.

وجدتْ قضية الغموض اهتمام النقاد العرب القدماء مع أنها ظهرتْ في القصيدة القديمة بدرجات متفاوتة؛ ولكن لارتباطها بالفهم والتذوق الشعري وجدتْ صدى عندهم، ولاسيّما عند وقوفهم على الشعر، الذي يتعلق بالأساطير ومسائل الغيب في عصر الجاهلية، ومن أمثلة ذلك قول أمية ابن أبي الصلت**(630م)**:

بآية قام ينطق كل شيء ** وخان أمَّانةَ الديك الغرابُ[4]

قال ابن قتيبة معلقًا على معنى البيت: "كانوا يقولون إن الديك كان نديمًا للغراب فرهنه على الخمر، وغدر به، ولم يرجع، وتركه عند الخمّار، فجعله الخمار حارسًا "[5] يبدو أن سبب غموض هذا البيت ناتج عن الأساطير، التي كانت تتناسب مع مستواهم المعرفي في العصر الجاهلي.

وأمَّا في عصر الإسلام فـ" يُعدّ الشاعران غيلان بن عقبة المعروف بذي الرمة- (117هـ)- والطرماح بن حكيم الطائي- (125هـ)- أبرز من يمثل الغموض في صدر الإسلام، وعصر بني أمية، فقد شاع في شعرهما اللفظ الوحشي الغريب"[6]، وفي العصر العباسي أخذت اللغة الشعرية تتسع وتتطور بفضل الحياة الجديدة، التي تغلب عليها الحضارة والدّعة، وبرز ذلك واضحًا في التشبيه والاستعارة، والمحسنات البديعية التي تلمسها الشعراء، وأفضوا إليها، وظهر الشعر الصوفي الذي اكتسى الغموض لغته، وأصبح المعنى يُؤدى بالإشارة والتلميح لا بالعبارة الواضحة يقول ابن الفارض (631هـ):

وعنيّ بالتلويح يفهم ذائق ** غنيٌّ عن التصريح للمتعنتِ[7]

فابن الفارض في هذا البيت يفتخر بأن حوى شعره غموضًا لا يدركه إلا ذائق، وهذا ممّا يدل على شيوع الغموض في شعره، وقَصْده له، وأن للمتصوفة معجمهم الشعريّ، الذي تدور في فلكه إشاراتهم ومصطلحاتهم؛ فإذا أدركها المتلقي زال إبهامها.

وبعد هذا الإلمام الموجز بوجود قضية الغموض في الممارسة الأدبية، ومحاولة تفسيرها وجب بيان موقف النقاد منها، وهم يمثلون ثلاث فرق هي:

1. الرافضون للغموض الشعري

يبدو أن أنصار نظرية (عمود الشعر) هم أنفسهم الرافضون للغموض البته ومنهم:

1.1. الحسن الآمدي (370هـ)

يُعدّ الآمدي أول من تزعم هذا الفريق في موازنته بين أبي تمام(231هـ) والبحتري(284هـ)، وهو أيضًا أول من جعله مقياسًا نقديًّا حيث استعرض مذهب الشاعرين وطريقتهما في صناعة الشعر فقال عن شعر أبي تمام: "مَن فضّل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد مّما يحتاج إلى استنباط، وشرح، واستخراج، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة، ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام"[8] لعل أنصار الشعر القديم هم الذين نادوا بالوضوح، وناصروه على الغموض محافظين على قرب التشبيه والاستعارات متمسكين بعمود الشعر، وهذا ظاهر من قول الآمدي: " مَن فضل البحتري، ونسبهُ إلى حلاوة اللفظ ، وحسن التخلص، ووضع الكلام في موضعه، وصحة العبارة وقرب المأتى، وانكشاف المعاني، وهم الكتاب والأعراب والشعراء"[9]، وهذه الصفات التي ذكرها هي صفات عمود الشعر، ومن أجلها بان الفريقان الأول محافظ والثاني مجدد.

وردّ الآمدي استعارات أبي تمام التي تحتاج إلى عمق في الفكر حتى تُفهم؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك محاولًا تسفيه ما غمض عليه فهمه[10]، وفي القليل يقبل -الآمدي- ما جاء مخالفًا لطرائق الشعراء القدماء نحو قول أبي تمام :

لا تسقني ماء الملام فإنني ** صبٌّ قد استعذبتُ ماء بكائي[11]

استعار أبو تمام للملام ماءً وجعله يشرب في قوله: (لا تسقني ماء الملام) وهذه استعارة عجيبة ردّها بعض النقاد[12] إلا أن الآمدي تقبلها بقبول حسن تهش له النفس قائلًا: "جعل للملام ماء ليقابل ماء بماء، و إن لم يكن للملام ماء على الحقيقة"[13] ونحن نرى أنها من مليح استعارات أبي تمام وأجودها؛ حيث استعار للملام ماءً وقابله بماء البكاء، ومثل هذه الاستعارة تضع أبا تمام في مصاف الشعراء المجددين للغة الشعرية، ولعل سبب إشادة الآمدي بها راجع إلى استحسان أبي بكر الصولي(335هـ) لها، الذي سبقه في عدّها صحيحةً جاريةً على كلام العرب نظير قولهم: كلام كثير الماء وغيره[14].

---

(4) الحديثي، بهجة، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، هيئة أبوظبي للثقافة، الأمَّارات العربية،2009م ، ص.155.

(5) ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله، الشعر والشعراء، تحقيق. أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2003،الجزء.1،ص. 450.

(6) الصاري، الغموض في القصيدة العربية الحديثة، ص. 24.

(7) ابن الفارض، عمر ، ديوانه، دار صادر، بيروت، لبنان ، (د. ت) ، ص. 184.

(8) الآمدي، الحسن بن بشر، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحيق: صقر، السيد أحمد، دار المعارف، القاهرة، (د. ت)،الجزء.1،ص.4.

(9) الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الجزء.1،ص.4.

(10) للزيادة انظر: المصدر السابق،الجزء.1،ص.246 .

(11) التبريزي، الخطيب، شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق : راجي الأسمر، ، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، 1994،الجزء.1،ص.22.

(12) من هؤلاء النقاد ابن سنان الخفاجي ردّ هذا البيت قائلًا: وليس هذا البيت عندي بمحمود ، الخفاجي، ابن سنان ، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982، ص. 165.

(13) الآمدي ، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ج 1 ، ص.244.

(14) الآمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ج1، ص. 278، وابن سنان ،سر الفصاحة، ص. 140.

2.1. القاضي الجرجاني (392هـ)

تتراءى مواقف القاضي الجرجاني، وأحكامه النقدية من خلال كتابة :(*الوساطة بين المتنبي وخصومه)* الذي جسد فيه ممارسةَ نقديةَ فذةً، ومن بين القضايا التي توقف عندها قضية (الغموض)، فقد عاب على أبي تمام شعره قائلًا:"اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الأغراض الخفية فاحتمل فيها كل غث ثقيل، وأرصد لها الافكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر، وكدّ الخاطر"[15]، وتُلمح عبقرية القاضي الجرجاني في قوله:(فصار هذا الجنس من شعره...)، وهو احتراس من أن يعمم هذا الحكم النقدي على جميع شعر أبي تمام، كما نجد الموقف نفسه عنده من الغموض في شعر المتنبي(354هـ)، وبخاصةٍ قوله:

وَفاؤكُما كالرَّبْعِ أشْجاهُ طاسمه ** بأنْ تُسعِدا والدّمْعُ أشفاهُ ساجِمُه[16]

فالمعنى الذي قصده المتنبي أَبْكِيا معي بدمع سائل وهو أشفى للحزن كما أن الرّبع كلّما كان دارسًا قديمًا كان أحزن لمن يقف عليه، ويرى القاضي الجرجاني أن المعنى المراد لا يستحق كل هذا التعقيد المفرط، فقال: "ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة، والتعقيد المفرط، فيشك أن وراءها كنزا من الحكمة، وأن في طيّها الغنيمة الباردة؛ حتى إذا فتّشها، وكشف عن سترها، وسهر ليالي متوالية فيها"[17] حصل على المعنى السابق الذي لا يستحق كل هذه المشقة في إدراكه، وكان الصواب مرافقًا للقاضي الجرجاني في ردّه بيت المتنبي السابق بسبب ضعف تأليفه، وفساد نظمه حيث إنه من جهة الإعراب أخبر عن المبتدأ "وفاؤكما" بالجار والمجرور" كالربع" قبل تمامه؛ حيث تعلقت به الباء في" بأن" ولا يجوز الإخبار عن الاسم قبل تمامه، وهو ما حصل به ضعف التأليف الذي ترتب عليه الغموض[18].

3.1. ابن رشيق القيرواني(463هـ)

حدد ابن رشيق القيرواني موقفه من قضية الغموض بوضوح في باب (المبالغة) الذي قال فيه:"ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشاعر، والمتكلم أيضًا الإبانة والإفصاح، وتقريب المعنى على السامع؛ فإن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور، وقبلته النفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة تكسبه بيانًا وتصوره في القلوب تصويرًا"[19] في هذا النّص يضع ابن رشيق أمَام القارئ ما يدفع عنه الوهم والفهم الخاطئ فقد يظن أن المراد بالوضوح والإبانة عدم اشتمال الشعر على تشبيهات ومجازات واستعارات لا ليس المقصود بالوضوح ذلك؛ بل قصدوا به تناسب قدر التفكير مع المعنى، الذي يصل إليه الذهن بعد التأمل.

4.1. أبو الحسن حازم القرطاجني (684هـ)

من أنصار الوضوح والإبانة حيث تبلورت مواقفه وأحكامه النقدية في مصنفه القيم "*منهاج البلغاء وسراج الأدباء*" الذي أصّل فيه لقضية الغموض بطريقة منقطعة النظير[20] من خلال حديثه على أنماط الدلالة على المعاني وهي[21]:" دلالة إيضاح"، و"دلالة إبهام"، و"دلالة إيضاح وإبهام"، ثم حدد وجوه الغموض في المعاني قائلًا: "منها ما يرجع إلى المعاني أنفسها، ومنها ما يرجع إلى الألفاظ والعبارات المدلول بها على المعنى، ومنها ما يرجع على المعاني، والألفاظ معًا"[22] وحصرما يرجع إلى المعاني في دقة المعنى وعمقه أو تشعبه بسبب طول العبارة، وأحيانًا يكون بسبب تضمن الكلام للمعاني العلمية، أوالأخبار التاريخية، أو الأمثال غير المستعملة، وتارة يكون بسبب دلالة المعنى على معانٍ كثيرة يصعب تحديد المراد منها وتأويلها، وتارة أخرى بسبب اشتمال المعنى على صفات مشتركة لا يختص بها، أوتضمين المعنى صور يصعب الجمع بينها .

وأمَّا سبب الغموض من جهة اللفظ والمعنى معًا فيرجعه أبو الحسن حازم القرطاجني إلى أن يكون اللفظ حوشيًّا[23]، أو مشتركًا، أو غريبًا لم يجري في الاستعمال، أوأن يضطرب الكلام بسبب ضعف التأليف وفساد النظم كأن يقع في الكلام تقديم وتأخير، أو قلب نظرًا لطول الكلام، أو لطول الفصل بين أجزاء الكلام[24]، بهذه الدقة حدد وجوه الغموض، ويبدو أنه لا يرى للغموض أي مزية فنية؛ لذلك عقد فصلًا لإرشاد الشعراء إلى الوسائل والطرق التي تخلصهم من الغموض سماه بـ "ما يزيل الغموض، والاشكال من المعاني"[25] حفاظًا على الوضوح والإبانة.

---

(15) ابن عبد العزيز، أبو الحسن علي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة، مصر، (د. ت)، ص. 19.

(16)المتنبي ، أبو الطيب ، ديوانه، دار بيروت للطباعة، لبنان، 1983، ص.256.

(17) ابن عبد العزيز ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص. 98.

(18) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة،1992، ص. 83.

(19) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت، لبنان ،1980 ، الجزء.2. 53

(20) النعيمي، أنس، وإبراهيم، مجدي، "الغموض في شعر الحداثة من منظور إسلامي"، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، 2013م، العدد .1 ، ص.87.

(21) القرطاجني , منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ص. 53.

(22) المصدر السابق نفسه.

(23) اللفظ الحوشيّ هو الغريب الذي قلّ في العربية استعماله مثل قولهم: الحَنْطَبَة أي الشجاعة ، ومنه أيضًا طَحَا الليل: بمعنى أظلم، الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، 1996م،ج.1 ،ص. 30 .

(24) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص. 53، و الصاري، الغموض في القصيدة العربية الحديثة، ص. 23-24.

(25) القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ،ص. 177- 188.

1.5. نزار قباني (1418هـ)

يقول نزار قباني محددًا موقفه من قضية الغموض، ولاسيّما أنها باتت سمة أصيلة في شعر الحداثة: "أزمة الشعر العربي الحديث أنه أضاع عنوان الجمهور، فهو يقف في قارة والناس في قارة ثانية، وبينهم بحار من التعالي والصلافة، وعُقد العظمة، وبدلًا أن تكون ثقافة الشاعر وسيلة للتفاهم والاقتراب، أصبحت قلعة من الغرور لا يدخلها أحد.. لماذا يعيد موزع البريد قصائد أكثر شعرائنا إليهم؟ لانّهم نسوا عنوان الشعب أو تناسوه"[26] هذه نظرة نزار لقضية الغموض وهي تحمل العتاب على الشعراء الذين صاغوا شعرًا لم يتجاوز صداه نفوسهم، وأبدع في تشبيههم بحال من كتب رسالة ونسى أن يكتب العنوان الذي يريدها أن تصل إليه فكذا حالهم كتبوا شعرًا؛ ولكنه لا يصل إلى المتلقي، ويشبهه بالكيمياء في قصيدة "إفادة في محكمة الشعر" قائلاً:

نرفض الشعر كيمياءٍ وسحرًا ** **قتلتنا القصيدة الكيمياءُ**
نرفض الشعر عتمةً ورموزًا ** **كيف تستطيع أن ترى الظلماءُ؟ [27]

لم يكن موقف نزار هذا على المستوى النظري فقط ؛ بل تعداه إلى المحك العملي الذي مثله بشعره، الذي ذاع بين الناس جميعًا يقول صلاح عبدالصبور في صياغة نزار: "أظن أن صياغة نزار قباني كانت أحلى صياغة عربية معاصرة، فهو ابن مدرسة الأناقة الشامية منذ القرن الرابع الهجري، وقد نما تقاليدها باقترابه من المدرسة اللبنانية المتأنقة التي مثلها سعيد عقل، وأمين نخلة"[28] لعله لم ينل شعر اهتمام الناس عامتهم، وخاصتهم في العصر الحديث مثل ما نال شعر نزار قباني؛ وذلك بسبب سهولته وقرب مفرداته، وجمال صياغته إلى جانب طابعه الغنائي الذي شجع الفنانين على غنائه.

خلاصة القول كان الوضوح جواز سفر يستخدمه شعر نزار للعبور إلى قلوب الناس، ولعله نجح في ذلك؛ فالكبار والصغار ينشدون شعر نزار ويتغنون به.

2 .القائلون بالغموض الشعري

وهؤلاء النقاد يمثل الغموض عندهم معدن الصناعة الشعرية، وجوهرها الأصيل، ومنهم:

2 . 1. أبو إسحاق الصابي(384هـ)

يرى أبو إسحاق أن الغموض هو جوهر الشعر، والمزية التي تفرّقه عن النثر، فـ" طريق الإحسان في منثور الكلام يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لانّ الترسل هو ما وضح معناه، وأعطاك سماعه في أول وهلـة ما تضمنته ألفاظه. وأفخر الشعر ما غمض، فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه"[29] من هذا النّص يتقرر أن طبيعة الشعر تتناسب مع المفاجأة التي تحصل للقارئ من إغماض المعنى، وعدم الإفصاح عنه من الوهلة الأولى؛ فتتعدد القراءات وتختلف التأويلات، وأن الغموض في النثر عيب، وفي الشعر حسن.

2.2. ضياء الدين بن الأثير(637هـ)

يمثل ابن الأثير فريق القائلين بالغموض الشعري حيث صرّح بأن الغموض غالبًا ما يقع في النّص بسبب التراكيب وليست المفردات قبل نظمها، وهو يقبل هذا الغموض، ومحصول قوله: "الألفاظ المفردة ينبغي أن تكون مفهومة سواء نظمًا كان الكلام أم نثرًا، وإذا تركبت فلا يلزم ذلك "[30] هكذا يتفهم ابن الأثير دور السياق في خلق معانٍ جديدةٍ تحتاج إلى إعمال للفكر، والغوص في استنباطها.

علاوةً على هؤلاء النقاد (الشعراء) هناك بعض الشعراء الذين أنتجوا الغموض، ودافعوا عنه، وعلى رأسهم أبو تمام، والمتنبي الذي ردّ على من يعيبون عليه الغموض قائلًا :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ** و آفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه ** على قدر القرائح و العلومِ [31]

ردّ المتنبي عدم فهم غموض شعره إلى العجز المستوي على المتلقي، وقصر باعه في فهم القريض والإلمام به.

2. 3. طه حسين (1393هـ)

تعرض طه حسين لقضية الغموض الشعري وارتأى في الغموض قمة الشاعرية، وذلك في مقال بعنوان:(حول قصيدة) نشره في الرسالة تحدث فيه عن قصيدة المقبرة البحرية Le Cimetière marin لبول فاليرPaul Valér، وحيث كان ينقح شعره، ويهذبه كثيرًا قبل أنْ يسلمه للجمهور، وإنْ بدت له القصيدة بعد إعادة النظر فيها غير متكاملة حرقها بالنار، واحتفظ لنفسه بتجربته، كما أنّ هذه القصيدة أكثر قصيدة في الشعر الفرنسي دار حولها الجدل، واشتغل بها النقاد أعوامًا كثيرةً يحللونها ويستنبطون معانيها، ومظاهر الحُسن فيها، وهي تزيد عن أربعة وأربعين ومائة بيت، ثم تساءل قائلًا: "هل يحسن بالشعر أن يكون واضحًا لا خلاف فيه، أو أن بعض الغموض فيه مغتفر بل مطلوب؟"[32]، ومال إلى تفضيل الغموض مُبرهنًا على صواب رأيه بأن القصيدة الجيدة هي التي يجد القارئ فيها اللذة الكبرى بعد كشف غموضها وبيان صورها وكلّما أعاد قراءتها بدت له في حلة جديدة من المعاني

---

[26] قباني، نزار، ما الشعر؟ ، مطبوعات نزار قباني، بيروت ،1982م ، ص.46-..47

[27] قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، (الأعمال السياسية)، منشورات نزار قباني، بيروت، (د. ت)، ج. 3، ص. 391.

[28] فضل، جهاد، قضايا الشعر الحديث، دار الشروق، القاهرة، 1984م ، ص. 266.

[29] ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج4، ص.6-7.

[30] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ج4، ص. 8.

[31] المتنبي، ديوانه ، ص.231 .

[32] حسين، طه ، " المقبرة البحرية – بول فيري"، مجلة الرسالة ،15اكتوبر 1933م، العدد.19،ص. 5-6.

والصور، واعتبر الغموض من أسباب خلود الشعر؛ بل علامة فنيته، كما صرّح بأن معرفة مذهب الشاعر أهم من معرفة معانيه حيث قال: " كل هذه الآراء و آراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبيّن المعاني التي أودعها قصيدته فهي تبيّن شيئًا آخرًا أظنه أقوم، وأجل خطرًا من هذه المعاني وهو مذهب الشاعر في فن الشعر، وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا الوضوح الذي يفسد الفن فسادًا ويقربه من الابتذال"[33].

2 . 4. عزالدين إسماعيل(1428هـ)

تحدد موقف عزالدين إسماعيل من خلال كتابه "*الشعر العربي المعاصر*"، والمقال القيم الذي نشره في *مجلة الثقافة المصرية* عام 1963م بعنوان:" الغموض في الشعر الجديد" دعا فيه أولًا إلى إعادة النظر في المقولة القائلة: "إذا كان الوضوح متاحًا فإن الغموض عجز"[34]، و ردّ حجة القائلين إن قدرًا كبيرًا من الشعر القديم امتاز بوضوح أفكاره، وقرب معانيه ومع ذلك أحدث أثرًا عميقًا، وهزّةً كبيرةً في نفوسهم، وأن العدول عن الوضوح إلى الغموض لا يمثل ضرورة فنية ولا طبيعة شعريةً قائلًا: "ربما ارتبط الغموض بطبيعة الشعر ذاتها حتى ليمكن القول في بعض الأحيان إن الشعر هو الغموض، وعند ذلك يكون شيوع ظاهرة الغموض في الشعر الجديد دليلًا على أن هذا الشعر قد حاول التخلص من كل صفة ليست شعرية، والاقتراب من طبيعة الشعر الأصلية"[35]، وفرّق بين الغموض والإبهام مستفيدًا من كتاب" *سبعة أنماط من الغموض*"[36] وليم إمبسون Wiliam Impson الذي خلص إلى أن الإبهام صفة نحوية ترتبط بالجمل من جهة تراكيبها، وأن الغموض صفة خيالية تصاحب الشاعر قبل مرحلة الصياغة اللغوية للنص على عادة الانّسان في فهم الأشياء أولًا بشكل كلي يكتنفه الغموض ثم يتلاشى بعد ذلك؛ ليحل الوضوح في محله[37].

ولعل أهم ما في بحثه حديثه عن الاستعارة حيث قال: "إن الاستعارة التي هي من أهم صور التعبير الشعري، وأبرزها، قد ارتبطت في نشأتها بالخرافة[38] أو بالأسطورة، وفي الخرافة تتمثل كل الخصائص التي تركزت فيما بعد في الاستعارة، وأهمها نسبة المشاعر والعواطف الانّسانية إلى الكائنات غير الحية،..والاستعارة خرافة أو أسطورة لخصت في عبارة موجزة شديدة الاختصار"[39] مثل قولهم: الريح تعول وغيرها، فهي استعارات لا تتفق مع العقل ولكن تُقبل من جهة الخيال، ويجب أن نفهم الغموض الشعري على هذا الأساس فالألفاظ لا تستعمل على الوجه المعتاد وبالدلالة المحددة المعروفة، ويخلص من ذلك إلى أن الغموض الشعري ليس نقيضًا للبساطة وأن أي شعر أحدث فينا الأثر، والهزة هو شعر عميق، وعزا غلبة الغموض على الشعر إلى إدراك الشاعر الحديث لطبيعة الشعر وجوهره، وجعل الغموض يضفي على النّص الشعري طابع الأصالة بمعنى: أن الشاعر يستعمل الألفاظ ، والصور التي تعبر عنه حق التعبير، كما أن الغموض يثري اللغة بالتراكيب الجديدة والصور الطريفة غير المبتذلة؛ لهذا كله يجب على النقاد قبول الشعر الجديد بغموضه؛ لأنّه عامل بناء وتطور وثراء [40] .

2 . 5. علي أحمد إسبر(أدونيس)

إن أدونيس من أوائل النقاد والشعراء الذين كتبوا ودافعوا عن قضية الغموض؛ بل ومارسوها في شعرهم، وتعدّ علامةً بارزةً في قصائدهم، وهو يرى أن الغموض قوام الشعر ويبدو أنه يجعل الغموض في مرتبة متوسطة بين النّص المبهم، والنّص المكشوف؛ لذلك فإنه" نقيض الوضوح الذي يجعل من القصيدة سطحًا بلا عمق، والشعر كذلك نقيض الإبهام الذي يجعل من القصيدة كهفًا مغلقًا"[41]، وأكد على أن الغموض ظاهرة طبيعية في الشعر؛ لانّ الشعر فن تغيير العالم بأسره، كما أنه بيّن مهمة الشاعر المعاصر قائلًا:" لم تعد مهمة الشاعر أن يعبّر كما كان يقال في عصر النهضة عمّا في نفوس الناس، وإنما أصبحت مهمته أن يقذف الناس من خارج نفوسهم، يعني أن يطرح عليهم الأسئلة باستمرار، ولذلك أرى في هذا المستوى وهذا المنظور أن الغموض مسألة طبيعية جدًّا "[42] وردّ أدونيس الغموض إلى مصدره الأول وهو الانّسان نفسه كائن غامض، وكذلك الكون مليء بالأسرار والغموض ولا يحمل الشاعر وزرًا في ذلك، وهو مثل أبي تمام والمتنبي في ردّ تهمة الغموض فهي عنده" دعوى باطلة، قناع يخفي به القارئ ضعف ثقافته وقصورها، وإصراره على أن يفهم ما تغير بذهنية لم تتغير"[43] ويشدد في لهجته مع الذين يرفضون الغموض قائلًا: "من يحارب هذا

---

[33] المصدر السابق نفسه.

[34] إسماعيل، عزالدين ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ، دار الثقافة، بيروت، (د. ت) ، ص .187.

[35] إسماعيل، عزالدين ،"الغموض في الشعر الجديد "، مجلة الثقافة المصرية، أكتوبر1963،العدد.14،ص.19.

[36] وهذه الانّماط هي: الأول: الغموض الناتج عن المجاز والاستعارات المعقدة واجتماع الصفات المعقدة، والثاني: الغموض الناتج من اتساع دلالة بعض الكلمات والتراكيب حيث تحتمل أكثر من معنيين والنوع الثالث: الغموض الناتج من فقدان الصلة بين معاني التراكيب المحتملة، والنوع الرابع: الغموض الناتج عن تشويش الصور والمعاني في ذهن الشاعر، والنوع الخامس: غموض ناتج عن الأفكار التي تتصل بالأمور الغيبية وبعالم ما وراء الطبيعة، والنوع السادس: الغموض الناتج عن تناقض معاني التراكيب اللغوية، والسابع: الغموض الناتج عن الاضطراب النفسي عند الشاعر الذي يقود إلى التناقض التام ، لزيادة التفصيل انظر، إمبسون، وليم، سبعة أنماط من الغموض،ترجمة:صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م ، ص. 38- 429.

[37] إسماعيل، "الغموض في الشعر الجديد "، ص.20.

[38] تقوم الخرافة عادة على التقاليد العامة وحكاياتهم وتنمو مع مرور الزمن حسب البلدان والرُّواة كما في حكايات (ألف ليلة وليلة) ، عبد النور ، جبور، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة.1، 1979، ص: 19.

[39] إسماعيل، "الغموض في الشعر الجديد "، ص. 21.

[40] إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر، ص. 193-194.

[41] إسبر، أدونيس علي أحمد ، مقدمة للشعر العربي ، دار الفكر، بيروت، لبنان ، 1986، ص.124.

[42] إسبر، أدونيس علي أحمد ،"ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث"، *مجلة الموقف الأدبي السورية*، شباط 1976م، العدد: 57، 58، ص. 193.

[43] إسبر، زمن الشعر، ص.280.

الشعر باسم الغموض يحارب الأعماق من أجل أن يبقى على السطح"[44] ولعلّ الكلمة الفصل في رؤيته للغموض هي أننا لا نختلف معه على المستوى النظري، ولكن على مستوى الشاعرية والمحك العملي فإن أدونيس لا يطبق هذه الرؤية في نتاجه الشعري فالكثير منه تستولي عليه الطلاسم والإبهام حتى أن شاعرًا في مقام صلاح عبدالصبور يستنكر عليه ذلك قائلًا: "أنا مع كل دواوين صديقنا أدونيس لم أفهم إلا قصيدة أو قصيدتين وأحسد من يفهمونه"[45] إذًا لا جدل في ولادة القصيدة الأدونيسية؛ ولكن القارئ الأريب لها لم يولد بعد، وليس هذا الحكم ينسحب على جميع شعر أدونيس ولكن على أكثره.

3. المتوسطون بين الفريقين

أنصار هذا الفريق يقفون في مسافة ثابتة من قضية الغموض، فهم يقبلون ما كان مستساغًا منه وتحته جوهر المعنى، ويرفضون الإبهام الذي ليس وراؤه ما يستحق من إعمال الفكر، ومنهم:

3. 1. أبو هلال العسكري(395هـ)

إن موقف أبي هلال من قضية الغموض يدل على وعي كبير بالصناعة الشعرية، ومراعاته لأهم عناصرها وهو المتلقي؛ لذلك يجب أن يكون في النّص غموض ولكنّه شفاف لا يصل إلى الإبهام، و في ذات الوقت لا يجب أن يكون المعنى سهلًا مكشوفًا ؛ لذلك انتقد قول جرير(110هـ):

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدكم يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعل** [46]

موضع الإبهام قوله:" ما لم أفعل" رأى فيه أبوهلال إبهامًا ذهب بحسن البيت جعل الشاعر المتلقيَّ في حيرة كبيرة من أمره، وأبوهلال القائل أيضًا: الشعر"ما كان لفظه سهلًا ومعناه مكشوفًا فهو من جملة الرديء المردود"[47]، إن لغة الشعر الجيد تبقى في إطار السهل الممتنع؛ أي: أن العامة إذا سمعته فهمته، ولكنها تعجزعن مجاراته.

3. 2. عبد القاهر الجرجاني(471هـ)

اشتهرتْ مقولةٌ لعبد القاهر الجرجاني التي تدل على ميله إلى خفاء المعنى وليس التعمية مفادها: "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نِيلَ بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف"[48] ولعل ما قصده عبد القاهر الجرجاني هو خلق الدهشة عند المتلقي على المستويين الحسي والعقلي، ولا شك أن الشعر أقدر فنون الأدب على ذلك التواصل بخلق هزّة داخل المتلقي، ودفعه إلى التعايش مع النّص في أجواء مفعمة بالعاطفة، واستعمل عدة مصطلحات للدلالة على الغموض منها[49]:"التّوسع"،و"الغرابة"، و" معنى المعنى"، وبيّن أن للمعاني الخفية مستويّين هما:

الأول- الغموض إذا كان الخفاء يمنح المعنى لطفًا جماليًّا يحقق للسامع المفاجآت التي تثلج صدره ممّا يجد من الصور والمعاني الرائقة وهذه المعاني عنده "كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشق عنه"[50]، والثاني- الإبهام وهو الذي يرجع معه الفكر صفرًا، فليس وراؤه ما يستحق التفكير، وعبرعبدالقاهرعن ذلك بقوله: "كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة، ويخاطر بالروح ثم يخرج بالخر"[51]، وجعل من أسباب الإبهام والتعقيد ضعف التأليف، والركاكة الناشئة من عدم المعرفة التامة بطرائق العرب في نظم كلامهم حيث قال: "واعلم أن لم تضق العبارة، ولم يقصر اللفظ ، ولم ينغلق الكلام في هذا الباب إلا لأنّه قد تناهى في الغموض والخفاء إلى أقصى الغايات"[52] ويتضح من هذا النّص أن عبد القاهر أدرك أهمية الغموض في بنية النّص الإبداعي، فهو جوهر شعريته، واتسع مجال الغموض عنده فشمل فنونًا بلاغيّةً مختلفةً مثل: التشبيه والاستعارة، والكناية والمجاز فهو ينظر إلى أثر هذه الفنون في نفس المتلقي، و" قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة"[53] إذن جعل المستوى البليغ من الكلام يتوقف على دقة الفكر والقدرة على اختراع المعاني، والجمع بين المتنافرات[54].

---

[44] المصدر السابق، ص.284.

[45] فضل ،قضايا الشعر الحديث، ص.266 .

[46] الصاوي، محمد ،شرح ديوان جرير، مطبعة الصاوي ، القاهرة ، مصر،(د. ت) ، ص. 443.

[47] العسكري، أبو هلال أحمد بن عبدالله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر ،تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ، 1998، ص.66.

[48] الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة، (د. ت) ، ص. 139 .

[49] أسرار البلاغة، ص.30 ، 131، 185،173، وعبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص. 263.

[50] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص.141 .

[51] المصدر السابق ،ص. 142.

[52] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص. 271 .

[53] المصدر السابق، ص. 70.

[54] سنجلاوي، إبراهيم، "موقف النقاد العرب القدماء من الغموض"، *مجلة عالم الفكر* ،1987م ، مجلد.18، العدد.3 ،ص. 194.

3 . 3. ابن أبي حديد (656هـ)

صرّح ابن أبي حديد بأن الشعر يدخله الغموض من جهة اعتماده على الإشارة، والإيماء ثم أبان الغموض المردود عنده بقوله: " ولسنا نعني بالغموض أن يكون كأشكال إقليدس، والمجسطي، والكلام في الجزء؛ بل أن يكون بحيث إذا ورد على الأذهان بلغت منه معانٍ غير مبتذلة وحكمًا غير مطروقة "[55] من هذا النّص يتقرر أنه يقف موقفًا وسطًا من الغموض، فهو يرفض المكشوف من المعاني و الغامض حدّ الإبهام[56].

4.3. عبدالرحمن بدوي (1423هـ)

اتسم بحث عبدالرحمن بدوي بظاهرة الغموض بالدقة والعلمية حيث قرر أولًا أن الغموض والوضوح أمران نسبيان ولا يقع بينهما التناوب؛ أي: "لا يمكن أن يقوم أحدهما بذاته على أنه أفضل أو أسوأ؛ لأن الأمر يتوقف على ما يعبر عنه هل هو ممّا يحتمل الوضوح التام، أو ممّا لا يُرى إلا في الظلال وفي ضوء العتمة، هل هو بسيط أولي ساذج أو مادي غليظ، فلا يملك المرء إلا التعبير عنه بوضوح ساذج غليظ، أو هو دقيق معقد لطيف خفيّ الجوانب مركب البناء؛ فلا يمكن التعبير عنه إلا أن يجيء مغلفًا بالغموض مشوبًا بالظلال المتفاوتة في السواد"[57] لا مشاحة أن بعض الأفكار تحتاج في تناولها إلى أن يُؤتى بها واضحة محددة، وبعضها تحتاج إلى ستار رقيق يغطيها؛ ومن هذا يتقرر أن الغموض أمر نسبي وليس حكمًا مطلقًا "ولا يحق لأحد في باب من أبواب الفكر الانّساني: الفلسفة، الأدب، العلم، الفن، الاجتماع،...إلخ، أن يمجد إنتاجًا؛ لأنّه واضح فحسب، أو أن يحط من قدر إنتاج؛ لأنّه غامض إذ العبرة هي بما يعبر عنه،... فإن جاء التعبير واضحًا مع الوفاء بكل ما في الفكرة من عمق، فهو أفضل ممّا لو كان غامضًا، أمّا إذا كان وضوح التعبير مرده إلى الالتزام بالسطح، والبعد عن الأعماق وتفاهة الفكر"[58] فهو خلل معيب، وأسوأ ما يقوم به الأديب اتجاه أفكاره، والقارئ، وصرّح أن الأفكار أو المعاني القريبة من عامة الناس إذا تناولها الشاعر، أو الناقد في نتاجه وجاءت عنده واضحة فلا فضل له في ذلك، وإنّما يكون له الفضل في عرضه المعاني العميقة والدقيقة في ثوب الوضوح، ويمكن إجمال فكره في الآتي:

أ- يعد الغموض عيبًا إذا كان سببه عمق الفكرة و الإحاطة بها.

ب- يجب ألا يعمد الأديب إلى الوضوح مضحيًّا في سبيله بالدقة والعمق، كما أن مصطلح الغموض يجب ألا يُطلق جزافًا؛ بل يجب أن نتساءل أولًا: هذا النّص غامض على من؟ فإن كان الجواب على غير أهل الاختصاص فليس هذا غموضًا، ولا عيبًا.

ج- يجب الحفاظ على العمق، والشمول، والدقة هذه الاستراتيجيات التي يجب أن يتوخاها الأديب عند تعامله مع الافكار لا الغموض والوضوح.

د- التقدم الانّساني يسير من البسيط إلى المركب ومن التعميمات إلى التدقيقات والتحليلات.

وبعد هذا العرض فإننا نميل إلى ما قرره عبد الرحمن بدوي في قضية الغموض؛ لِمَا فيه من تفصيل دقيق للقضية يدّل على سعة الاطلاع ودقة التحليل، وصواب الرأي.

3 . 5. وليد قصاب

درس وليد قصاب قضية الغموض دراسةً مستفيضةً من خلال المقال الموسوم بـ"الوضوح والغموض في الأدب العربي بين التراث والحداثة" [59] الذي بدأه بالحديث عن جملة من مصطلحات البلاغة ذات الصلة بالوضوح منها: البلاغة والفصاحة، والبيان وبيّن أقوال النقاد والبلاغيين العرب في ذم الغموض والتعقيد كثيرة جدًّا من ذلك قول أبي هلال العسكري: "من أراد مديح، أو غزل أو صفة شيء، فأتى بإغلاق؛ دل ذلك على عجزه عن الإبانة"[60]؛ أي: من أراد المدح أو غيره من موضوعات الشعر، وجاء بشعر مستغلق غامض لا يُفهم معناه دلّ ذلك على عجزه؛ لانّ هذه الموضوعات الأصل فيها الوضوح والإبانة، وتقريب المعاني؛ ليتحقق القصد منها، ثم انتقل إلى بيان دلالة الوضوح وقرر في هدوء أنه لا يعني السطحية والابتذال، وأنه لا يتعارض مع الإيحاء الذي هو سمة اللغة الشعرية، وأن التعبير المجازي أبلغ من الحقيقي كما أن الغاية من اللغة الأدبية الإفهام مع تحقيق قيمة جمالية بخلاف اللغة العادية، التي تسعى إلى الإفهام.

وتحدث عن ترجيح بعض النقاد العرب للغموض على الوضوح وأنه من علامات الشاعرية والشعر الفاخر، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وصرّح بأن مصطلح الغموض غالبًا ما يرتبط بالدلالة السلبية، وهو ما يتنافى مع حقيقة الغموض الأدبي، وهذا ما وضحه ابن أبي حديد حيث قال: "إن مفهوم الغموض الذي تردد فيه ابن الأثير يعني: أن طبيعة الشعر قائمة على الإيجاز، ولكثرة المعاني احتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر يتضمن ضروبًا من الإشارة، وأنواعًا من الإيماءات والتنبيهات؛ فكان فيه غموض"[61]، وأكد على أن الأولى بهذا الضرب من الغموض أن يُسمى الغموض الفني، وأن المذموم ما كانت دلالته مستغلقه والأولى أن يسمى إبهامًا.

---

[55] ابن أبي حديد، عبد الحميد ، الفلك الدائر على المثل السائر،(مطبوع مع المثل السائر)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانه ، دار نهضة مصر، القاهرة، (د. ت)،ج. 4، ص.305.

[56] المصدر السابق نفسه.

[57] بدوي، عبد الرحمن، "الوضوح والغموض" ، *مجلة الثقافة المصرية*، 6 يوليو 1965م، العدد. 103 ،ص.3 .

[58] المصدر السابق نفسه.

[59] قصاب، وليد،"الوضوح والغموض في الأدب العربي بين التراث والحداثة" مجلة آفاق الثقافة والتراث،2012م، العدد. 7، ص. 31- 46.

[60] العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، ص. 52.

[61] ابن أبي حديد ، الفلك الدائر على المثل السائر،ج4، ص. 281.

وأمَّا ظاهرة غموض في شعر الحداثة فهي السمة الكبرى، وجلّه من الضرب المذموم المستغلق؛ أي: غموض الإبهام، وهو ما أحدث (إشكالية التوصيل) وهي من أبرز مشاكل الشعر الحديث مستشهدًا بأقوال الشعراء أنفسهم نحو قول محمود درويش(2008م) في قصيدته (محاولة رقم 7):

لن تفهموني دون معجزة ** لأنّ لغاتكم مفهومة
إن الوضوح جريمة [62]

وحصر أسباب الغموض في كونه ثقافة دخيلة مستوردة من الغرب و قد ضاق الغرب أنفسهم به؛ حيث بيّن أنه أحد أسباب أزمة الشعر الحديث في فرنسا؛ ممّا أدّى إلى انقطاع الصلة بين النّص الشعري والمتلقي ناقلًا قول ألبير ليو نار **Albert Leonard**: " لقد ظل الشعر إجمالًا في متناول جمهور واسع – إلى حدّ كافٍ– حتى عام 1914م، غير أننا سرعان ما شهدنا هوةً تتسع بين هذا الجمهور وبينه، وأخذ اجتيازها يزداد صعوبةً، ولقد أخذ الشعراء يكثرون في الوقت الذي فقد فيه الشعر قراءه الذين رفضوا أن يلعبوا لعبة التفسير"[63]، بالإضافة إلى عدة عوامل أخرى كانت وراء ظهور الغموض منها: عوامل سياسية، واجتماعية، ونفسية نحو: انهيار القيم والثوابت في المجتمعات الغربية علاوةً على إحساسهم بعبثية الحياة، والرؤية الضبابية لها، والتشكيك في كل شيء.

وناصرتْ الغموضَ عدة مذاهب أدبية غربية منها: الرّمزيّة[64]، والسوريالية[65]،ومدارس العبث واللامعقول[66] وغيرها، وتبنى أدباء الحداثة العربية هذه المذاهب، وسوغوا لظهور الغموض وغرق فيه شعرهم، كما يبدو ذلك عند أدونيس وأمثاله من المعبرين عن المجتمعات الغربية لا العربية، وإن أدونيس في الحقيقة "لا يعرف حالة الشك والعبث واللامعقول؛ بل يصطنعها في أدبه اصطناعًا"[67] حبًّا في تقليد أدباء الغرب، وفي ذلك إشكالية كبرى على مستوى التواصل واحتقار للمتلقي، وتجريد الشعر من أية وظيفة اجتماعية.

وتعرّض- وليد قصاب- إلى مسؤولية الشاعر الحداثي عن الفوضى وعدم الوضوح، الذي يتقصده الشاعر، ويتعمده تقليدًا لشعراء الغرب الذين يعانون من أزمة حقيقية تتجسد في عدم وضوح الرؤية وفقد الثوابت واليقينيات، وهي في ثقافتنا تنطلق من عقيدتنا الدينية؛ أي: أننا نطلق في تعاملنا مع قضايا الحياة من إيماننا العميق بالله- عز وجل- وثقافتنا الدينية الراسخة، وليس من فلسفات ونظريات جدلية عقيمة.

كما أن المتلقي أيضًا تقع على عاتقه مسؤولية كبرى، تتمثل في عدم معرفته التّامة بطبيعة لغة الشعر التي تقوم أساسًا على الخيال والمجاز، و الانّزياح، فالشعر ذو لغة كثيفة يكتنفها الغموض بسبب الإيجاز، وكذلك على المتلقي أن يعي طبيعة الأدب الحديث، وهي مفارقة لِمَا اعتاد عليه في النّصوص الشعرية القديمة بسبب التطور الذي حصل للشعر، وحتى لا تقع هوة بين المتلقي والشاعر.

وهناك مسؤولية أخرى تتعدى الشاعر والمتلقي لتشمل الوضع الثقافي القائم بأسره منها: الانّبهار بالآخر الغربي، وكذلك تقليد الشعراء الحداثيين العرب للشعراء الغربين، وإعجابهم الشديد بطرائقهم الفنية، وكذلك غلبة العجمة، وفساد الذائقة الأدبية بشكل عام في هذا العصر، وتفشي اللهجات العامية، واللّغات الأجنبية؛ ممّا أدى إلى ضعف في السليقة اللغوية تحدثًا وكتابةً وفهمًا، ولاشك بعد ذلك في وجود صعوبة في فهم النّصوص الشعرية التي تمثل استعمال اللغة بطريقة مخصوصة.

وخلاصة القول إن ما قرره (وليد قصاب) في قضية الغموض يدل على رؤيته النقدية المتكاملة حيث عرض القضية من عدة جوانب وربطها بالسياق الثقافي العام بدءًا من وضعها في إطارها التاريخي، وبيان صلتها بالبلاغة، والنقد العربي القديم والحديث مهتمًا بعملية التلقي والتواصل وهو ما يحقق أصالة الإبداع الشعري.

الخاتمة

من خلال العرض السالف لمجمل آراء النقاد العرب- القدماء والمحدثين- يمكن أن استخلاص بعض النتائج، والتي أهمها أن الخلط بين مفهومي: (الغموض و الإبهام) له دور كبير في تشكيل رؤية النقاد العرب القدماء للقضية، وفي توجيهاتهم لها.

وأمَّا فيما يتعلق بالفريق الرافض للغموض الشعري من النقاد القدماء والمحدثين فهم من النقاد اللُّغويين، الذين يهتمون بجانب الإفادة والوضوح فقط ، ومن هنا جاءت الرؤية السلبية لمصطلح الغموض عند بعض النقاد، وفي الحقيقة أن المبالغة في الاهتمام بالوضوح تتنافى مع طبيعة الصياغة الشعرية القائمة على التصوير، وتكثيف الدلالة والإيجاز.

---

(62) درويش، محمود، الأعمال الشعرية الكاملة ، دار العودة، بيروت– لبنان، 1979م، ج.1، ص. 482.

(63) ايغلتون، تيري، نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1995م، ، ص.252.

(64) استخدام الرّمز في الشعر قديم جدًّا في جميع الآداب، ولكن الرّمزيّة Le symbolime مذهبًا أدبيًا لم تعرف إلّا في القرن التاسع عشر، ولعل أول من أطلق هذا المصطلح هو الشاعر الفرنسي جان موريس Jean Maurice؛ ولماكان أدبهم يقوم على الإيحاء لا المباشرة مال إلى الغموض، وللمزيد حولها انظر: راغب، نبيل،المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، الهيئة المصرية للكتاب، (د.ت)، ص.106.

(65) تعرف السّريالية L esurrealisme بأنها أدب ما فوق الواقع، وتخليد المكبوتات؛ لذلك وجد أنصارها في الأحلام ، وتداعي الخواطر مادة خصبة لأعمالهم الفنية التي يلفها الغموض، ولعل الشاعر الفرنسي أندريه بريتون Andre Breton المؤسس الحقيقي لها عام 1924، وللمزيد حولها انظر: راغب، نبيل،المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، ص.229.

(66) ظهرت مدرسة اللا معقول أو العبث Absurd بعد الحرب العالمية الثانية، ويُعد صامويل بيكيت Samuel Beckeet رائد مدرسة العبث دون منازع، ومهمة الأديب عندهم تكمن في تحقيق الجدة والغرابة، وإظهار اللا معنى حتى يمكن تحويله إلى منطق متسق ، وهو ما قادهم إلى الجمع بين المتناقضات؛ ممّا جعل القارئ يقف عاجزًا عن إدراك أدبهم، وللمزيد حولها انظر: راغب، نبيل، المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية ،ص. 239.

(67) قصاب،" الوضوح والغموض في الأدب العربي بين التراث والحداثة"، ص. 40.

كما أننا نؤكد على أن الوضوح والغموض أمران نسبيان؛ أي: يجب على الأديب أن يحرص على الشمول والعمق، والدّقة عند تعامله مع الأفكار لا مسألة الوضوح والغموض.

ردّ النقاد العرب القدماء الغموض المذموم أو المستغلق إلى ضعف التأليف، واستعمال الألفاظ الحوشية، والاستعارات الغريبة البعيدة، في حين رأى النقاد المحدثون أن من أسباب الغموض المذموم تقليد شعراء الحداثة العرب لشعراء الغرب، الأمر الذي أدى إلى كثرة الشعراء، وقلة القرّاء، وأحدث (إشكالية التوصيل)، التي عاش معها الشعراء في أبراجهم العاجية بعيدًا عن الحياة والمجتمع.

وأمَّا أنصار الغموض فيُعدّونه عيبًا إذّا وقع في صياغة النثر؛ لأنّ الكاتب مطالب بالوضوح عند تعبيره عن الحقائق والأفكار، التي من شأنها مخاطبة العقل، وذلك بخلاف الشعر فيحسن وقوع الغموض فيه؛ بل هو من سماته الفنية؛ كي يسمح بتعدد القراءات واختلاف التأويلات.

إن مسألة إطلاق لفظ الغموض- المذموم – على النّص الأدبي إلى طرح سؤال ومفاده: (هذا النّص غامض على مَن؟) فإن كان الجواب على أهل الاختصاص فهو مذموم ومبهم، وأمَّا إن كان على غيرهم فلا يُعاب الشاعر، وكذلك إذا كان الخفاء يمنح المعنى لطفًا جماليًّا يحقق للسامع المفاجآت؛ التي تثلج صدره ممّا يجد من الصور والمعاني الرائقة فهو غموض فني يتناسب مع طبيعة الشعر.

المصادر والمراجع

ابن أبي حديد، عبد الحميد، الفلك الدائر على المثل السائر،(مطبوع مع المثل السائر)، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، (عدد المجلدات:1)، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، (عدد المجلدات: 4)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، (د.ت).

ابن الفارض، عمر ، ديوانه، (عدد المجلدات:1)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).

الخفاجي ، ابن سنان ، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982.

ابن عبد العزيز، أبو الحسن علي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي،(عدد المجلدات:1) ، مطبعة عيسى الحلبي ، القاهرة، مصر، (د.ت).

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله، الشعر والشعراء، تحقيق. أحمد شاكر،(عدد المجلدات:2)، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2003.

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، (عدد المجلدات:15)، دار صادر، بيروت، لبنان،1993.

إسبر، أدونيس علي أحمد ، "ظاهرة الغموض في الشعر العربي الحديث" ، *مجلة الموقف الأدبي السورية*، العدد: 57، 58، ص. 193،شباط 1976 .

... مقدمة للشعر العربي ، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1986 .

... زمن الشعر ، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1983.

إسماعيل، عزالدين ، "الغموض في الشعر الجديد "، *مجلة الثقافة المصرية*، العدد. 14 ، ص.19-21 ، أكتوبر 1963.

... ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).

إمبسون، وليم (Wiliam Impson)، سبعة أنماط من الغموض، ترجمة: صبري محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، 2000.

الآمدي ، الحسن بن بشر، الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحيق: صقر، السيد أحمد،(عدد المجلدات:3)، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

ايغلتون، تيري Eaglaton Terry ، نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1995.

بدوي، عبد الرحمن، "الوضوح والغموض"، *مجلة الثقافة المصرية*، العدد. 103، ص.3 ،6 يوليو 1965.

التبريزي، الخطيب، شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق : راجي الأسمر،(عدد المجلدات:2) ، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، 1994.

الحديثي، بهجة، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، هيئة أبوظبي للثقافة، الأمَّارات العربية،2009.

حسين، طه، "المقبرة البحرية – بول قيري"، *مجلة الرسالة* ،15 العدد.19 ، ص. 5-6 ، اكتوبر 1933.

درويش، محمود، الأعمال الشعرية الكاملة، (عدد المجلدات:2)، دار العودة ، بيروت- لبنان، 1979.

الدمشقي، عبد الرحمن بن حسن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، 1996.

راغب، نبيل، المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة- مصر، (د.ت).

سنجلاوي، إبراهيم، "موقف النقاد العرب القدماء من الغموض"، *مجلة عالم الفكر*، مجلد.18، العدد.3، ص. 1987،194 .

الصاري، عادل، ،الغموض في القصيدة العربية الحديثة (دراسة لأسباب الغموض في شعر الرواد)، مكتبة دار حمودة، زليتن – ليبيا،2006.

الصاوي، محمد ،شرح ديوان جرير، (عدد المجلدات:1)، مطبعة الصاوي ، القاهرة ، مصر، (د.ت).

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، (عدد المجلدات:1)، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، (د.ت).

... دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود شاكر(عدد المجلدات:1)، مطبعة المدني ،القاهرة ، مصر، 1992.

عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، (عدد االمجلدات:1)، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1979.

العسكري، أبو هلال أحمد بن عبدالله بن سهل، الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،(عدد المجلدات:1)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان،1998.

فضل، جهاد، قضايا الشعر الحديث، دار الشروق، القاهرة، 1984.

قباني، نزار، ما الشعر؟ ، مطبوعات نزار قباني، بيروت،1982.

... الأعمال الشعرية الكاملة: (الأعمال السياسية)، (عدد المجلدات:9)، منشورات نزار قباني، بيروت، (د.ت).

القرطاجني، حازم بن محمد ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب،(عدد المجلدات:1)، دار الكتاب العربي، تونس،2008.

قصاب، وليد، "الوضوح والغموض في الأدب العربي بين التراث والحداثة " *مجلة آفاق الثقافة والتراث*، العدد. 7، ص. 31- 46 ،2012.

القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (عدد المجلدات:2)، دار الجيل ، بيروت، لبنان، 1980.

المتنبي، أبو الطيب ، ديوانه، (عدد المجلدات:1)، دار بيروت للطباعة، لبنان، 1983

النعيمي، أنس، وإبراهيم، مجدي، "الغموض في شعر الحداثة من منظور إسلامي"، *مجلة الدراسات اللغوية والأدبية*، العدد .1، ص.87 ،2013 .